# مجتمعاتنا مهددة بالاحتلال اللغوي

## «قضية للمناقشة»

د . غريب جمعة - مصر

قال محدثي:

ألم تر أن العالم العربي والإسلامي محاصر بالأخطار من كل جانب، تلك الأخطار التي يموج بعضها في بعض وأنت تريد أن تحدثنا عن اللغة العربية أو بمعنى أدق عن محنة اللغة العربية ؟ ألم تسمع بمذبحة غزة؟ ألم تسمع بغيرها من المذابح ؟

قلت لمحدثي: لا أجهل ذلك كله – ولله الحمد – ولقد تحدثت عن بعضه في أكثر من صحيفة ومجلة أكثر من مرة، أما عن مذبحة غزة فهي ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، ولأزيدنك من الشعر بيتاً في هذه المرة كما يقال:

لقد أدلى ونستون تشرشل "رئيس وزراء بريطانيا السابق، الصهيوني العريق بشهادته عام ١٩٤٧م أمام لجنة "بيل" وهي أول لجنة اقترحت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، فماذا قال؟ – ولتسمع الدنيا قوله – لقد قال:

«إنه ليس للسكان الأصليين حق في فلسطين أكثر من الحق النهائي لكلب في مذود وإن يكن قد اضطجع به لزمن طويل»[١].

أعرفت إلى أي حد يعترفون بحق العرب في فلسطين؟! إنه لايزيد عن حق كلب في مذود وإن يكن قد اضطجع به لزمن طويل..!!

ثم جاء بن جوريون من بعده وقال: « لولا الدعم الحيوي من البنادق الأجنبية من الإمبراطورية البريطانية ماكان للدولة اليهودية أن تظهر إلى الوجود»[٢].

ثم جاء ديان من بعد بن جوريون ليؤكد هذه المقولة فقال: « إنه دون الخوذة الحديدية وفوهة البندقية للمستوطنين الصهاينة لايمكن أن تظهر الدولة اليهودية»[٣].

هذه مجرد نماذج من أقوال أولئك المجرمين، بل أولئك الجزارين ومن على شاكلتهم، فهل نعتبر ؟

نعم لانجهل ذلك .. بل وقرأنا أكثر منه ... والى الله المشتكى ..

ولكني أتحدث عن اللغة العربية في هذه الأيام العصيبة لأن الحفاظ عليها حفاظ على الذات، ووحدة اللسان من أهم مقومات الأمة، وتوحيد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والمشاعر والثقافة وبالتالي توحيد الجهود، وهل تجرعنا العلقم إلا بسبب اختلاف الرأي والمشاعر والثقافة وتشتت الجهود ؟

ونحن نعني باللغة العربية ما بينه لنا أحد أعلام أساتذتها في العالم العربي وهو الدكتور ابراهيم أبو الخشب (يرحمه الله) في كتابه الرائع حيث جاء فيه .

«وحين نقول اللغة العربية لانعني بها النحو و الصرف وعلوم البلاغة، لكننا نعني بها كل مايقوم اللسان

ويهذب البيان، وينمي الذوق ويصحح الفكر ويسدد الرأي، ويعين على فصاحة المنطق وإصابة وجه الحق والتزام الجادة، وفي مقدمتها كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ وما أظن هذا الرأي يجوز عند أولئك الذي انقطعت صلتهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا من تلك الكتب التي تصرفها لهم المدرسة ثم تصرفهم الدراسة الأخرى عنها، ولايكون امتحانهم فيها آخر العام إلا ذرا للرماد وملئاً للفراغ وترفيهاً عن النفس وترويحاً للقلب. وفي اليوم الذي يؤمنون بما نؤمن به سيجدون أنفسهم على مستوى آخر من الأدب الذي لايعترف بهذا التخلف، ولا تلك الأفكار الهزيلة المريضة لأنهم حينئذ يأتون البيوت من أبوابها»(٤).

لذلك إذا رأيت مجتمعاً من المجتمعات يدير في أفواهه ألسنة المجتمعات الأجنبية عنه ليبين أفراده عما يجيش في أنفسهم فاعلم أنه مجتمع حكم على نفسه بالتبعية والعبودية النفسية والفكرية والثقافية والاحتلال اللغوي مهما زعم غير ذلك .

وإن كبر عليك ما أقول، فلتذهب إلى أحد الأسواق التجارية، ولتدخل أحد المصارف المالية أو شركة من الشركات أو مؤسسة من المؤسسات أو مطعما من المطاعم أو بعض الدوائر الحكومية أو مكتبا من مكاتب السفريات.. أو غير ذلك مما يتحتم التعامل معه فستجد خليطا من الألسنة ومزيجا من الرطانة كما وصفها حافظ إبراهيم – يرحمه الله – في قوله على لسان اللغة العربية:

حافظ إبراهيم

أيهجرني قومي عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتصل بـرواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى
لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة
مشكلة الألـوان مختلفات

أما حال العربي فيها فهو كما وصفه الشاعر:

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

تقرأ الإعلانات، وتحضر الاجتماعات وتطلع على المراسلات بأكثر من لغة أجنبية فإن حاولت – مجرد محاولة – أن تتحدث بالعربية لأنها هويتك وأنت في الوطن العربي نظر إليك محدثك شذرا وأخفى ابتسامة خبيثة، وحدثك من أنفه وأدار لك ظهره ... لأنك متخلف يصعب التفاهم معك!! ويرحم الله أديب العروبة والإسلام الكبير مصطفى صادق الرافعي حينما يصف واحدا من هذا الصنف فيقول:

«هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري ولفكره جنس آخر.. ثم يقول: وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلعنها العربية مرتفعا عن لغة الفصيح ارتفاعا منحطا، نازلا بها عن لغة السوقة نزولا عاليا . فكان يرتضخ لكنة أعجمية بينما هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئن، وفي كلمة ثالثة صوت موسيقى يرن.

ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرفا ولا تملحا، ولا إظهارا لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن من نفسه فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائف على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه.

فلما انصرف الرجل قال الباشا: أف لهذا وأمثال هذا، أف لهم ومما يصنعون.

إن هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة) ولأشرف منه والله رجل قروي ساذج يكون لقبه (حضرة صاحب الجاموسة).. نعم، إن الفلاح عندنا جاهل علم، ولكن هذا أقبح منه جهلا فإنه جاهل وطنية. ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن، فما هو عمل (حضرة صاحب اللسان المرقع؟) . إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرد من الروح السياسية للغة قومه إذ لا يظهر الروح السياسي للغة إلا في الحرص عليها وتقديمها على ما سواها»[٥] أما العالم الجليل الأستاذ الدكتور كمال بشر عميد كلية العلوم (سابقا) ورئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة فيقول:

اللغة العربية لغة قوية معبرة صالحة للنمو والتطور ولكن أصحابها هدموها بأيديهم وألسنتهم . فاللغة لا يمكن أن تكتسب منفصلة عن أصحابها بأي حال من الأحوال لأنها ظاهرة اجتماعية وليست كائنا حيا -كما يريد البعض- يمكن أن تنمو بنفسها. لكننا نلاحظ أن قوتها من قوة أهلها .

إذن هي ظاهرة اجتماعية، ونحن حينما نتكلم عن اللغة فنحن نتكلم عن اللغة المنطوقة. حقيقة. لأن هذا هو المعنى الصحيح العلمي الدقيق للغة . أما اللغة المكتوبة فهي مجرد معاون ومساعد.

د . كمال بشر

إنما اللغة المنطوقة هي الأساس، وهي لا تكتسب من الهواء، وإنما لا بد من السماع والإسماع، تسمع لغة صحيحة فتتكلم لغة صحيحة . ومن هنا أرى أن التعليم لو ركز على المطالعة لحقق شيئا جيدا . ولكن هناك جهات تفسد اللغة بقصد وبغير قصد، لأنهم لا يتقون الله ولا يرعون الضمير في عملهم حتى في المواقع التي يجب أن تكون اللغة فيها لغة القوم أجمعين، مثل القنوات الفضائية إلى درجة أن هناك دعوة للتخاطب باللهجات العامية عبر تلك القنوات، وهذه مصيبة، فحينما ندافع عن اللغة ونقف إلى جوارها فهذا ليس دفاعا عن اللغة ذاتها وإنما عن قوميتنا وهويتنا.

إن المجتمع في عمومه به ضعف ووهن في اللغة العربية، وعلى المؤسسات المعنية باللغة وعلى الغيورين عليها من أهلها الدور الأكبر والأول في إصلاح ما أفسده البعض قدر المستطاع، فالدفاع عن لغة القرآن يرقى إلى مرتبة الجهاد»[٦].

وهكذا .. أخي الكريم – ترى أن الأمر في غاية الخطورة، وإذا لم يتم تداركه من قبل الجميع مسؤولين وغير مسؤولين، فإن مجتمعاتنا مهددة بالاحتلال اللغوي، وعندئذ قد يأتي يوم – لا قدر الله – نحتاج فيه إلى قاموس لكي نقرأ القرآن ■

---

الهوامش:

(١).(٢).(٣) ما يفوق الوقاحة . تأليف نورمان ج. فنكلستين. ترجمة أيمن. ح حداد. أحمد. ف. عوض. الناشر العبيكان للأبحاث والتطوير. الرياض. الطبعة العربية الأولى. ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(٤) تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر. د . إبراهيم أبو الخشب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. الطبعة الرابعة. ١٩٩٢م.

(٥) وحي القلم. الجزء الثاني. مصطفى صادق الرافعي. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. بدون تاريخ.

(٦) مجلة المجتمع. الكويت. العدد ١٨٣٢، ٢٨ ذو الحجة ١٤٢٦هـ، ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨. السنة ٣٩ .